أَوْسَعْتُهم سَبّاً وراحوا بالإِبِل، أوَّلُ مَن قاله كعبُ بن زهير، كان له إبلٌ يرعاها، فأغار عليها الحارث بنُ وَرْقاء فاستاقها، وصَعِد كعبٌ على أكَمَة، وجعل يَشتُم الحارث وهو لا يَلتفت. يُضربُ لمَن لم يكن له حيلةٌ وقد ذهب مالُه[١].

اليومَ خَمْرٌ وغداً أَمْرٌ، أوَّلُ مَن قاله امرؤ القيس بن حُجر الكِندي، ومعناه: اليوم يومُ خَفْضٍ ودَعَة، وغداً جِدٌّ واجتهاد[٢].

فصل في ذكر طوائف العرب وما كانوا يعتقدون من الأديان

وكانت العربُ في الجاهليّة تَدين بأديانٍ، فمنهم مَن كان يَدين بالله تعالى، وباليوم الآخر، والبعث، والنشور، وأن الله يُثيب المُطيع ويُعذّب العاصي، كقُسِّ بنِ ساعدة ومَن كان في الفترة.

ومنهم مَن كان يُثبتُ حَدَثَ العالَم، وقِدَمَ الصَّانع، ثم مع ذلك يعبدون الأصنام، ويزعمون أنها تُقَرِّبُهم إلى الله زُلْفى.

ومنهم مَن أقرَّ بالخالق، وكذَّبَ بالرُّسُل والبَعْث والنُّشور، وقال بالدَّهر.

ومنهم مَن تَنصَّر وتهوَّد وتَمجَّس.

ومنهم طائفةٌ عَبدت الكواكب، وقالت: هم بناتُ الله.

ومنهم من كان يُثبتُ التَّوحيد والوَعْد والوَعيد، وَيترك التَّقليد، كعبد المطلب بن هاشم وغيره، ومع هذا كانوا يُعَظِّمون الأصنام[٣].

فصل في أخبارِ قوم منهم أهلكهم الله تعالى

فمنهم عاد وثَمود وطسْم وجَديس، ولما هلك هؤلاء تفرق مَن بَقي من القبائل، فنزل بعضُهم مكّة، وبعضُهم الطائف، ونزل يَثرب بن مَهلاييل بن إرم مكان المدينة فنسبت إليه.

---

(١) أمثال أبي عبيد ٣٢١، والفاخر ١٧٦، والعسكري ١/ ١١٦، والميداني ٢/ ٣٦٣، والزمخشري ١/ ٤٣١.

(٢) أمثال أبي عبيد ٣٣٣، والعسكري ٢/ ٤٣١، والميداني ٢/ ٤١٧، والزمخشري ١/ ٣٥٨.

(٣) مروج الذهب ٣/ ٢٥٦ـ٢٥٨.

ومنهم داسِم قبيلةٌ عظيمة، خرجوا إلى الشام، فنزلوا أرض السَّماوة بين العراق والشام، وكانت عمارة وبساتين ومياه تَتدفَّق، فأقاموا مُدَّة، ثم طَغَوا وفسدوا، ومال قويُّهم على ضعيفهم، فبعث الله عليهم ريحاً سوداء في ليلة مُظلمة فنسفَتْهم، فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنُهم، ويَبِسَت الثّمار، وغارت المياه كأن لم تكن بالأمس[١].

وأهلك الله أُمماً كثيرة بعدهم لمَّا طغَوا وبَغوا، قال الله تعالى: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾[مريم: ٩٨].

فصل

في مذاهب العرب في النَّفْس والرُّوح، والغِيلان، والسَّعالى، والهواتف، والنَّسْناس، والزَّجْر، والسَّانِح، والبارِح، والكَهانة، والسّحر، والعائِف، والقائف.

فأمّا **النَّفْس** فقال بعضهم: هي الدَّم، وقال بعضهم: هي الرُّوح، وقالت طائفة: **النَّفْسُ** شِبْهُ طائر، يَنبسِطُ في جسم الآدميّ، فإذا مات لم يزل مُطِيفاً به يَصدحُ على قبره، وهو الهَام، ثم يَكبر حتى يصير كالبوم، وهو مُتوَحِّش من الناس، يسكن الخَراب والنَّواويس، وعند مصارع القَتْلَى[٢].

وأما **الغُول**: فقد زعم قومٌ من العرب أنها تَتَراءى لهم في البَراري، وتظهر في أنواع من الصُّوَر، فتُخاطبهم ويُخاطبونَها، وربما باضعوها.

وقال تأبَّط شَرّاً: [من المتقارب]

فأَصبحتُ والغُولُ لي جارةٌ ... فيا جارتي أنتِ ما أَهْوَلا
فطالَبْتُها بُضْعَها فالْتَوَتْ ... بوَجْهٍ تَغَوَّل فاسْتَغْوَلا
فمَن كان يَسألُ عن جارتي ... فإنّ لها باللِّوى مَنزِلا[٣]

وقال عمر رضي الله عنه: كنتُ في طريق الشام قبل الإسلام فغالَتْني الغُول، فضَرَبْتُها بسيفي فانهزمتْ[٤].

---

(١) انظر مروج الذهب ٣/ ٢٨٩.
(٢) مروج الذهب ٣/ ٣٠٩ـ٣١٢.
(٣) ديوانه ١٦٤ـ١٦٦، ومروج الذهب ٣/ ٣١٤ـ٣١٥.
(٤) مروج الذهب ٣/ ٣١٦.

وفَرَّقوا بين الغُول والسِّعْلاة، قال الشاعر: [من الطويل]

وساخِرةٍ منّي ولو أن عَينَها رأتْ ما أُلاقيه من الهَولِ جُنَّتِ
أَتَيْتُ وسِعْلاةٌ وغُولٌ بقَفْرَةٍ إذا الليلُ وارى الجِنَّ منه أَرَنَّتِ[1]

وعلى هذا القُطرُبُ والغَدَّار وما شاكل ذلك، والغالب عليها أنها تظهر بأكناف اليمن وتِهامة وصَعيد مصر والأماكن البعيدة، وقد تَغلِبُ على الإنسان فتَنكِحه، فيُدوِّد دُبُرُه فيموت.

ومن أمثال أهل تِهامة: أَمَنكوح أم مَذْعُور، لمَن رأى في طريقه شيئاً من ذلك، فإن قال: مَذعور قالوا: لا بأس عليك، وإن قال: مَنكوح يئسوا منه.

وروي عن وَهْب بن مُنَبِّه أنه قال: أَصلُ هذه الأنواع المُتَشَيْطِنَة أن إبليس خلق الله له زوجةً من نار السَّموم فنَكحها، فباضت بَيْضاً، فمنه هذه الأشياء[2].

وأما **الهواتف**، فالهَتْف: الصوت يُسمَع من غير أن يُرى جِسمُه.

وأما **النَّسْناسُ**، فهو جنس من الخَلْق يَثِبُ على رِجلٍ واحدة، وهو بحَضرموت واليمن، وحمله حَنين بن إسحاق إلى المتوكل من أرض حضرموت وهو حي.

قال حنين: هو على صورة ابن آدم إلا أن وجهَه في صدره، وله نصفُ وَجه، وإِلْيَةٌ كإِلْيَةِ الغنم، وأهل حضرموت يأكلونه، ولحمُه لَذيذ، ولا يتولّد إلا في بلادهم.

والعربيد: دابَّةٌ من جنس النسناس.

وقال شَبيب بن شَيبة التّميمي: قَدِمتُ حضرموتَ، فنزلت على رجل من أكبر أهلها، فتَذاكرنا النَّسْناس، فقال لغلمانه: صِيدوا لنا منه، فصادوا واحداً، فلما رآني صاح: أنا بالله وبك، فسألتُه فأَطلَقَه. ثم خرج ذلك الرجل وخرجت معه أتصيَّد، وإذا بواحد منهم يعدو، وله ثَدي كثَدي المرأة، فأطلقوا عليه الكلاب فأمسكوه وذبحوه، فقلت: ما أشدَّ حُمْرةَ دَمِه، فصاح نَسناسٌ آخرُ من شجرة: مما يأكل السّماق، فأخذوا الآخر فذبحوه[3].

---

(١) البيتان لعبيد بن أيوب العنبري في الحيوان ٦/ ١٦٠، ومروج الذهب ٣/ ٣١٨.

(٢) مروج الذهب ٣/ ٣١٩ـ٣٢٠، وانظر عجائب المخلوقات ٣٩١ـ٣٩٩.

(٣) مروج الذهب ٤/ ١٠ـ١٧، وانظر أمثال السدوسي ٦٨.

وأما **الزَّجْرُ**: فهو العِيافَة، وهو ضَرْبٌ من التَّكَهُّن.

وأما **السَّانِح**: فهو ما ولّاك مَيامِنَه من ظَبْيٍ أو غيره، والبارِح بخلافه. والعرب تَتيمَّن بالسَّانح وتَتَشاءم بالبارح[١].

وخرج جماعةٌ من العرب يقصدون سيِّداً في بعض المنازل، فسنَح قطيعٌ من الظِّباء مُعترِضةٌ للرَّكْب، ثم كرَّت راجعة، فقال زاجر معهم[٢]: [من الطويل]

ألـم تَـدْرِ مـا قـال الـظِّـبـاءُ الـسَّـوانِـحُ عَـطَـفْـنَ أمـام الـرَّكْـبِ والـرَّكْـبُ رائـحُ
فـكـبَّـر مَـن لـم يَـعـرف الـزَّجْـرَ مـنـهـم وأَيـقَـنَ قـلـبـي أنَّـهـنَّ نَـوائـحُ

ثم قال: قَضى الرَّجل، قالوا: من أين لك؟ قال: أما رأيتم الظِّباء سَنحت، ثم رَجعت على أعقابها؟ قالوا: بلى، قال: فهذا أمر لا يَتمُّ، فجاؤوا فوجدوا الرجل قد لُدغ فمات[٣].

وأما **الكَهَانة والسِّحْر** فلا فرق بينهما، يستخدم الكاهنُ والساحرُ الشيطان، بفنون الرُّقى والأسامي والبَخورات، فيُخبره بالغائبات، وقد كانت الشياطين قبل مَبعث رسول الله ﷺ تَصْعَدُ السّماء، فتَسترِقُ السَّمع، فلما بُعث رسول الله ﷺ حجبت حراسه القرآن العزيز.

والسِّحْرُ حَقٌّ.

ذكر أسامي الكُهَّان بعد المَبْعَثِ

وهم: شِقّ، وسَطيح، وسَمْلَقة، وزوبَعة، وسَديف، والأفعى الجرهمي، وعمران أخو عامر، وعمرو بن عامر الخارج من اليمن وكاهنته طريفة، وكاهنة باهلة، وكُهَّان أُخَر.

والعَرَّاف: الكاهن، وقيل: هو الطبيب.

وأما **العِيافَة** فهي: زَجْر الطائر، وهو أن يَنظرَ في أسمائها، ومَسَاقِطها، وأصواتها، ويقال للعائف: المُتَكَهِّن.

---

(١) الصحاح (زجر، سنح، برح).

(٢) هو الراعي النميري، والبيتان في ديوانه ٤٥.

(٣) مروج الذهب ٣/ ٣٤٠ـ٣٤١.

وأما **القِيافَة** فهي: مَعرفة الآثار[١]، وهي لا توجد إلا في الفُطَناء من العرب.

وكانت كلُّ قبيلة مخصوصة بشيء، فلبعضهم الكَهانَة، ولبعضهم الزَّجْر والفأل، ولبعضهم القافَة، والشَّبَه يكون في القَدم غالباً.

وكانت القيافة في مُضر وربيعة وأَنمار أولاد نِزار، وكذا في إياد ومَذْحِج، وهم اليوم بالحجاز وتِهامة، وبالجِفار بين مصر والشام.

فصل

وقد كان لهم العَدْوى، والطِّيَرَة، والصَّفَر، ثم انتَسخ الجميع بقوله ﷺ: «لاعَدوى، ولا طِيَرة، ولا هامَة، ولا صَفَر»[٢].

فصل في أطعمة العرب

منها البَسيسَة، وهي كلُّ شيءٍ خَلَطْتَه بغيره من غير طَبْخ.

ومنها البَكِيْلَة، وهي أن يُخلط السَّويق بماء وتمر.

ومنها الخُرْس، وهي طعام الوِلادة.

والإعذار: طعام الختان للجارية والغُلام.

والنَّقيعَة، طعام القادم من السَّفر.

ومنها الحَريرَة، وهي أن تُنصَبَ القِدْر، ويُقَطَّع اللَّحْمُ صِغاراً على ماء كثير، فإذا نَضِج ذُرَّ عليه الدَّقيق، وإن لم يكن فيها لَحْم فهي عَصِيدة[٣].

ومنها الرَّبِيكَة، وهي تَمْرٌ يُعجَنُ بسَمْنٍ وأَقِط، وفي المثل: غَرْثان فارْبُكوا له، لأن أعرابيّاً أتى أهلَه، فبُشِّر بغُلام وُلِد له، فقال: ما أَصنعُ به، آكُلُه أم أَشرَبُه؟ فقالت امرأتُه: غَرْثان فارْبُكوا له، أي: جائِعٌ فأطعِموه[٤].

---

(١) الصحاح (عيف، قيف).

(٢) أخرجه أحمد (٧٦٢٠)، والبخاري (٥٧١٧)، ومسلم (٢٢٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر العقد ٦/ ٢٩١ـ٢٩٢، وإصلاح المنطق ٣٨٣، وفقه اللغة ٤٥٠، ٤٥٤، ٤٥٥.

(٤) إصلاح المنطق ٣٨٢ـ٣٨٣، والصحاح (ربك)، وفقه اللغة ٤٥٣، والمثل في جمهرة الأمثال ٢/ ٨٢، ومجمع الأمثال ٢/ ٥٦.